دانييلا دروشر

أكاذيب
عن
أمي

رواية
دار نشر كيبنهاور وفيتش

أمي لا تُناسب أي تابوت. تقول إنها سمينة للغاية. بعد وفاتها، لا يجب حفظ رماد جثمانها في جرّة، وإنما يُنثر ببساطة فوق المياه المفتوحة.
تعيش والدتي عند البحيرة منذ بضع سنوات. إنها أقصى نقطة في الشمال الشرقي للبلاد. لا يمكن أن تكون أقرب لبولندا، البلد الذي ولدتْ فيه، أكثر من ذلك.

نتحدث كثيرًا عن الموت. في الواقع، هي الوحيدة التي تتحدث عن ذلك. وزنها هو ما يزعجها، على الرغم من أنها لا تعاني من أيٍ من الأمراض التقليدية، التي يُشخصها الأطباء تلقائيًا لدى الأشخاص، الذين يعانون من السمنة المفرطة. كانت الآلام تسكن في عضلاتها ومفاصلها.
يمكنني التحدث مع والدتي عن أشياء كثيرة؛ في الواقع عن كل شيء تقريبًا. الشيء الوحيد الذي لا نتطرق إليه هو مسألة المال. يبدو أنها لن تكشف هذا السر أبدًا. هي نفسها ربما تنكر أنها احتفظت بسر على الإطلاق.

لكنها بالتأكيد كان لديها أسرار، على ما أعتقد. تمامًا مثل كل إنسان لديه ثلاث أرواح: واحدة عامة، وأخرى خاصة، وثالثة سرية.
أجول بناظري على أرفف كتبها. أخذتُ أُفكر: تولستوي. أمي تحب *آنا كارنينا*. ربما يمكننا بدء محادثة حول الخراب المأساوي لبطلة تولستوي؟
"كل العائلات السعيدة... "، هكذا بدأت كلامي، لكن والدتي كانت قد حوّلت رأسها الجميل بالفعل إلى الجانب.
"ماذا. تعاسة."
نعم، أعتقد تعاسة. كانت تعاستها تقبع على كتفَي طوال طفولتي وشبابي مثل الرصاص الثقيل. إذًا، هذه ليست قصتها فقط، إنها قصتي أيضًا.

قُلتُ لها مُهددةً: "إذا لم تتحدثي أخيرًا، سأضطر إلى ابتكار شيء ما. سأضطر إلى الكذب".

"تفضلي. هذا هو عملك."

ابتسمت والدتي، وهي تشعر بالإطراء، ولكن دون تأثُّر على الإطلاق. تقريبًا كما لو أنها تود أن تكون بطلة روايتي. من ناحية أخرى، بدوت أنا كطفلة خجولة. وليس ككاتبة.

القصة التي تدور في ذهني هي قصة بها الكثير من الزينة، والشعر المستعار الأشقر، والأرجوحة، والأرضية المزدوجة. قصة خيالية بالكامل من نواحٍ كثيرة. يوصف الخيال في الفلسفة، بأنه "وسيلة منهجية مساعدة في حل مشكلةٍ ما". مشكلتي هي: هناك الكثير من الأسرار في عائلتي لا أعرف من أين أبدأ. المال هو أحدها فقط.

تعود حقيقة أن والدتي تبدو لي أحيانًا غامضة جدًا، على الرغم من أننا قريبان جدًا من بعضنا البعض، أيضًا إلى والدي. بالنسبة له فقد كانت أكثر شخص غامضٍ في العالم. في الوقت نفسه، كان يدّعي أنه يعرف عنها كل شيءٍ، حتى أدق التفاصيل.

كنتُ أسمعه يقول: "والدتك لا تعرف أي حدود. ليس فيما يتعلق بالمال ولا بالطعام، ولا يوجد شيء غامض في ذلك".

بعبارات بسيطة مثل هذه، وصم والدتي على مر السنين. وقد صدقْته، في وقت ما، أو على الأقل بين الحين والآخر.

عندما كنت طفلة، كنت دائمًا أقف بين الاثنين، مثل محقق خاص صغير. ولكنني كنتُ فقط أعمل لحسابي الخاص.

يصعب على الطفل، الذي يتقلب انتباهه باستمرار في العالم الخارجي بين البالغين، التمييز بين الأكاذيب والأسرار.

إذا كنتُ أرغب في معرفة الحقيقة الخاصة بي عن المال وعن كل شيء آخر، يجب أن أُحول والديّ إلى شخصيات. شخصيات تساعدني على فهم مَن قال في الواقع أي أكاذيب عن مَن.

لقد ترددت للمرة الأخيرة. كيف أكتب عن والدتي دون أن أكرر نظرة والدي إليها؟

قالت والدتي فجأة بهدوء "فقط ابدئي؛ يمكنك فعل ذلك". فسألتها "ماذا؟".

"حسنًا، احكي قصتك بطريقة تحميني."

"محميةً من خلال ماذا؟ ماذا تعتقدين؟"

فابتسمت وقالت: "حسنًا، مِن خلال مَن؟ من خلالك بالطبع".

"قل الحقيقة كلها،
لكن قلها بشكل غير مباشر
النجاح هو أن تحوم حولها
صدمة الحقيقة تعصفُ بإدراكنا
من خلال إشعاعها القوي
كما يمكن من خلال الشرح اللطيف
تخفيف الأمر كالبرق على الطفل،
يجب تعمية الحقيقة بلُطف،
وإلا سيصاب الجميع بالعَمَى."
إميلي ديكنسون

"كان هذا هراء حقيقي!
كان من الطراز القديم، بل حتى ريفي!
هذا كل شيء"!
موناكو فرانتسه

واحد

1983: السنة الدولية للتواصُل

طير هذا العام: سنونو الشاطئ

1

كنت في المقعد الخلفي لسيارتنا الفولكس فاجن بيتل البرتقالية. على أرضية السيارة على جانب الراكب بجوار السائق، كانت هناك حقيبة سفر جلدية، لم نكن نأخذها إلا عند قضاء الإجازات الصيفية. كان الصندوق أيضًا مليئًا بالأمتعة. شعرتُ أن هناك خطبًا ما.

كان لا يزال الوقت مبكرًا في الصباح. كان يجب أن تكون والدتي في العمل، وكان يجب أن أكون في روضة الأطفال. بدلاً من ذلك، سافرنا على الطريق الرئيسي في اتجاه هيميلشتات، حيث كان يعيش جداي.

سألتُ: "هل يعلم الجد والجدة أننا قادمتان؟" أومأت والدتي برأسها فقط لكنها لم تقل شيئًا.

بحثتُ عن وجهها في المرآة الخلفية. كانت تُحدق في الطريق، وحاولتْ إخفاء دموعها عني.

كنت أعرف ذلك جيدًا. كان والدي يقول دائمًا: "ليس أمام الطفلة". لم يكن يريدني أن أسمع تلاسنهما.

كان الاثنان يتجادلان كل يوم تقريبًا، ولكي نكون أكثر دقة، كان هو يتعارك معها، وهي تدافع عن نفسها، وحسب. كان الجدال يبدأ عادة في المساء، عندما يعود والدي من المكتب ويشكو من أنه يرى أن زوجته "سمينة للغاية". اليوم كان الشجار قد بدأ بالفعل مع تناول الإفطار.

شاهدتُ والدتي وهي توازن بشجاعة دموعها على الخط الضيق لجفنيها السفليين. كنت أتحسس دميتي، إيفونا، الجاثمة على المقعد المجاور لي. فضلًا عن بيير، القط الأسود، كانت تُمثل كل شيء بالنسبة لي. جميع أطفال روضة

الأطفال في القرية كان لديهم أخ أو أخت، أما أنا فقد كان لدي إيفونا.

لإسعاد والدتي، قررت أن أدندن عددًا من أغنياتي. للقيام بذلك، وقفت منتصبةً وساقاي متباعدتان في المساحة الضيقة خلف فرملة اليد. أحببتُ ذلك المكان، يمكنك رؤية الطريق بحرية تامة من هناك. على عكس والدي، لم أضطر أبدًا إلى ربط حزام الأمان عندما كنا نخرج بالسيارة البيتل، أمي وأنا.

وبينما كنت أغني، كانت خطوط الوسط البيضاء تتأرجح أسفل السيارة. على الجانبين كان يمكن رؤية مزارع كروم العنب، ثم المروج مرة أخرى، ولم يظهر على المنحدرات سوى عدد قليل من المنازل.

بدت لي الرحلة إلى هيميلشتات غريبة. لم نذهب إلى جدَّي لفترة طويلة، ولم يكونا لدينا منذ فترة طويلة جدًا. قبل ذلك، كانت هناك دائمًا خلافات بينهما وبين والدَي أبي، اللذان يعيشان في منزلنا. لم تكن والدتي قادرة على التوسط بينهم. وحاول والدي القيام بذلك، ولكن فقط بفتور.

فجأة توقف مشهد مظاهر الطبيعة المتحرك. ترجرجت السيارة فجأة، وكأن عملاقًا تحرك داخل صندوق السيارة. صرختُ، وأمسكتُ بمسند الرأس. اهتزت السيارة وقفزت، وقامت والدتي بالسيطرة على عجلة القيادة، وتمكنت بطريقة ما من توجيهها إلى جانب الطريق. كان رأسي يؤلمني. فقد اصطدمتُ بسقف السيارة بكل قوة، ثم اصطدمتُ بإيفونا.

"هل أنت بخير؟" اتكأت أمي بين المقاعد، وتحسست جبهتي.

أومأتُ برأسي لأطمئنها.
"هل أنت متأكد؟"، أزاحت شعري الأشقر، المعقود على شكل ذيل حصان، بعيدًا عن وجهي، لتهدئني.
سألتها بذهول: "ماذا حدث؟"
استدارت والدتي إلى لوحة القيادة.
"لقد نسيتُ أن أملأ السيارة بالبنزين."

مشينا بعد ذلك بقليل على جانب الطريق الرئيسي. لم تستطع ذراعي إبعاد جيركن البنزين الضخم بعيدًا عني بما يكفي، وكان الجيركن المعدني الفارغ يضرب ساقي مع كل خطوة. كان الأمر مملًا، لكن والدتي كانت ترتدي حذائها ذي الكعب العالي والمفتوح عند الأصابع، وكانت أظافر قدميها مطلية باللون الأحمر، وعيناها تتألقان بلون مُظلل العيون الأزرق. رأيتُ أن جيركن البنزين الصدئ لا يُناسب تلك "الإطلالة"، كما اعتادت الجَدة مارثا، والدة والدي، تسميتها.

كان الجو حارًا بشكل غير عادي بالنسبة لأحد أيام أبريل، وكانت والدتي في عجلة من أمرها. حتى في تلك الظروف، في الحر، كانت حريصة على الحفاظ على أن تبدو مشيتها رشيقة وبلا مجهود، كما لو كانت تحوم في الهواء. ظللت أتراجع قليلاً خلفها. أحببت كيف ترسم الشمس صورتنا في خطوط على الأسفلت. كان ظل أمي كبيرًا وعريضًا، وكان ظلي رفيعًا وقصيرًا، وحاولتُ مع كل خطوة البقاء في ظلها.

كانت في الأسابيع السابقة كلمات "السعرات الحرارية" و"النظام الغذائي" و"الإجازة الصيفية" تتردد بين جدران شقتنا. أراد والدي أن تأخذ والدتي "دواء". لكن والدتي رفضت، لأنها لم تعتقد أبدًا أنها كانت شديدة البدانة.

كانت والدتي تشكو دائمًا من أن الجدة مارثا، كانت توافق على ما يقوله أبي، حتى "دون أن تُسأل". لم تكن جدتي تحب والدتي، ولم تحب والدَيها أيضًا. وزعمت أن الأسرة جاءت من "خارج البلد". كانوا من بولندا وفي نفس الوقت ألمان، أي "ألمان من شليزين"، وهو الأمر الذي كنتُ أجده معقدًا بشكل رهيب.

"هناك، أمي، هناك." كدتُ من فرط سعادتي أن أتعثر في الجيركن.

على بعد أمتار قليلة أمامنا، ظهر هاتف طوارئ على حافة الطريق، كان لامعًا وبرتقاليًا مثل السيارة البيتل. هزت والدتي رأسها وسحبتني من يدي أثناء مرورها بالهاتف.

"لكن بابا يقول أنه يمكنك استخدامه للاتصال بخدمة طوارئ السيارات ADAC."

كان والدي قد شرح لي كيف يعمل ذلك.

وكان أفراد خدمة السيارات يسمَّون بـ"الملائكة الصفراء".

ضحكت والدتي. لم تكن ضحكة حقيقية، ولم يكُن يعجبني عندما كانت تبدو ساخرة للغاية.

"ليس إذا نسي المرء أن يملأ سيارته بالبنزين." ثم نظرت إليّ باهتمام: "يجب ألا تُخبري بابا عن هذا. هل تسمعيني جيدًا؟"

أومأتُ برأسي، لكنني شعرت بوخز حار في مؤخرة عنقي. الكذب والبكاء واللعب بالطعام، كانت الخطايا الثلاث المميتة. وكان الكذب أسوأها على الإطلاق.

لم تكُن والدتي تكره شيئًا أكثر من الكذب.

قالت مُعتذرةً: "أنتِ تعرفين كيف هو".

كان صحيحًا أن والدي سينزعج بشدة إذا علم بذلك الحادث المُحرج. في وظيفته يجب أن يكون كل شيء دقيقًا. كان يصمم التروس التي تتحقق من التروس الأخرى، ويمكن لخطأ واحد أن يتسبب في قتل بعض الأشخاص. يمكن أن تتعطل الطائرات، ويمكن أن تنحرف القطارات عن مسارها، ويمكن أن تنحرف سيارات سباقات الفورمولا 1 عن مسار السباق وتصطدم دون رادع بالمدرجات. أدركتُ أنه من الأفضل عدم إخباره عن خزان السيارة الفارغ.

"انظري. نحن على وشك الوصول."

كان يمكن بالفعل رؤية منزلًا صغيرًا بأعلام تلوح باللون الأزرق البحري من بعيد.

عندما وصلنا إلى محطة الوقود، حبست أنفاسي من الرائحة النفاذة للبنزين.

فأمرتني أمي: "تنفسي من فمك".

"ماذا؟ توقفت السيارة؟"

سرعان ما التصقت نظرات عامل محطة الوقود بجسد والدتي. لم تعجبني الطريقة التي كان ينظر بها الرجل إليها. كانت عيناه تنتقلان من تنورتها الجينز المُمتدة إلى ساقها، ثم إلى كَنزتها الرفيعة.

لا يبدو أنه وجدها "بدينة جدًا".

مرّت بي نظراته مرور الكرام فقط؛ لكنني لم أرفع عينَي عنه، تمامًا كما أبقى هو عينيه على والدتي، بينما كان يضع الصنبور في الجيركن، الذي كان يقرقر مع انطلاق البنزين فيه.

دفعت والدتي حقيبة يدها أمامها، وسحبت محفظتها، ثم عقدت ذراعيها. عندها فقط أدركتُ أن شيئًا ما كان مفقودًا.

"إيفونا"؛ في عجلة من أمري، نسيتها في السيارة.

»إيفونا. هل هذه أختك؟"، تحول صوت عامل محطة الوقود فجأة إلى طبقة صوت غريبة. لابد أني قد ناديت بالاسم بصوت عالٍ.

فقالت أمي بسرعة، وهي تنظر إلي نظرة تهديد: "إنها مجرد دُمية، واسمها إيفونا". في الواقع، كان الاسم الأصلي لنموذج الدمية "إيفون"، لكن جدتي من هيميلشتات، التي جاءت "من الخارج"، أعادت تسميتها إلى "إيفونا" بدافع الحنين إلى الوطن.

"إذًا، تفضلي!" سحب الرجل صنبور البنزين من الجيركن.

فتحت والدتي محفظتها. كانت حركات يدها مركزة في البداية، لكنها بعد ذلك أصبحت أكثر ارتباكًا. في النهاية رفعت عينيها إليه وقالت: "ليس لدي نقود كافية".

فنظر عامل محطة الوقود إلى والدتي، وقد تبددت نظرات الإعجاب تمامًا.

"نعم، وماذا الآن؟"

رأيت والدتي تجز على أسنانها، وتلف شفتيها إلى الداخل. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تخرج فيها دون نقود. في بعض الأحيان كانت تشتري "على الحساب" من الجزار أو محل بيع الزهور. لكنهم كانوا أشخاصًا يعرفونها.

نظر إليها عامل المحطة من أعلى إلى أسفل مرة أخرى.

"عادة يتعين علي في مثل هذه الأحوال الاتصال بالشرطة."

نظرتُ إلى والدتي في رعب. بدت هادئة، لكنني كنت أعرفُ كيف تبدو عندما كانت تحاول قمع غضبها.

وقفتْ هناك للحظة وهي تنظر إلى مزارع الكروم التي أقيمت على الجانب الآخر من الطريق.

تنهدت، ثم قالت: "أتعرف، سأحضر لك المال غدًا، ومعه كعكة سأعدها بنفسي. اتفقنا؟"

تردد الرجل. "هل يمكنك تحديد هويتك؟"، سحبت والدتي أوراقها من محفظتها على عجل. فحص عامل محطة الوقود صورة جواز السفر، ثم أومأ برأسه، وبعد بضع دقائق عدنا إلى السيارة سيرًا على جانب الطريق.

كانت والدتي تحمل العبوة الثقيلة. وكان البنزين يتناثر مع كل خطوة.

عندما حاولت مساعدتها، لوّحت لي ألا أفعل.

سألتني: "كيف حال رأسك؟ هل أنت بخير؟"، إلا أن الأمر بدا لي وكأنه توبيخ أكثر منه قلق عليّ.

أومأت برأسي، رغم أن وجعًا خفيفًا كان يخفق في صدغي. بقدر ما كانت والدتي حنونةً، كان يمكن أن يتغير مزاجها إلى العكس فجأة.

لم تقل كلمة واحدة بقية الطريق. ولكنها توقفت عدة مرات لالتقاط أنفاسها؛ كما كادت أن تلوي كاحلها عدة مرات. بدى الأمر غير صحي بشكل رهيب، ولم يعُد يبدو أنيقًا، لكن لم يخطر ببالها رغم ذلك خلع حذائها ذي الكعب العالي.

بعد أن ملأت خزان السيارة، أغلقت غطاء الجيركن، ثم ألقت إليّ ثم إلى السيارة البيتل نظرة حادة.

قالت: "إذًا؛ سنعود إلى المنزل وحسب"، وفتحت الباب بصخب.

زحفتُ إلى المقعد الخلفي إلى إيفونا. بمجرد أن ركبت والدتي السيارة، ربطتُ حزام الأمان. وحاولتُ طوال طريق العودة أن أنظر من فوق رأسها إلى إبرة مؤشِّر الوقود.